

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمْعًا لَّيْسَ لَكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ) : الهمزة لإنكار طمع المؤمنين في إيمان اليهود بعد ما علموا حالهم ، أى استنكاره واستبعاده منهم ، والفاء عطف ما بعدها على مقدر ، والتقدير : «أتحسبون قلوبهم صالحة للإيمان بعد ما علمتموه من حالهم ، فتطمعون أن يؤمنوا لكم» ، والمراد نبيهم عن الطمع في إيمانهم بعد علمهم بحالهم .

(فَرِيقٌ مِّنْهُمْ) : جماعة منهم .

(كَلَامَ اللَّهِ) : المراد به : التوراة .

(فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) : بين لكم خاصة ، أو حكم وقضى عليكم

(لِيُحَاجُّوكُمْ) : ليخاصموكم ويقيموا عليكم الحجة .

(عِندَ رَبِّكُمْ) : أى في كتاب ربكم وشرعه ، كما تقول هو عند الله كذا ، أى في

كتابه وشرعه .

التفسير

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنون معه ، شديدي الحرص على إيمان اليهود ، طامعين في دخولهم في الإسلام ، لأنهم أهل كتاب ، ولأنهم كانوا من : قبل يستفتحون ويستنصرون على الأوس والخزرج بالنبي الذي قرب زمانه ، وذكرت أوصافه في كتابهم ،

لكنهم - عندما جاءهم ما عرفوا - كفروا به ؛ لما انطوت عليه نفوسهم من الخبث ، وسوء السريرة ، ولما جبلوا عليه من سوء السيرة ؛ ولهذا حكى الله فيما مضى مساوئهم ، ونعى عليهم جنائياتهم ، وذكر أن قلوبهم قاسية ، كالحجارة أو أشد قسوة ، ورتب على ذلك إقنات المؤمنين من إيمانهم ، ونهى لهم عن الطمع فيه فقال :

٧٥ - (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ) . الآية .

أى لا تطمعوا فى إيمان اليهود مستجيبين لكم .

(وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ) : وهم الأخبار والرهبان .

(يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ) : أى يسمعون التوراة ، ثم يتعمدون تحريف ما فيها ، مما لا يوافق أغراضهم ، ولا يتمشى مع أهوائهم ، من بعد ما فهموها ، فَقَدْ مَاؤُهُمْ حَرَفُوهَا بِتَحْلِيلِ الْحَرَامِ ، وَتَحْرِيمِ الْحَلَالِ ، كما قاله مجاهد . ومعاصروهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - حَرَفُوهَا بِتَغْيِيرِ نَعْتِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - وتبديل آية الرجم ، وغير ذلك ، حتى يحتفظوا لأنفسهم بالزعامة الدينية : يفعلون ذلك (مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ) : أى فهموه حق الفهم ، دون أن تكون لهم شبهة فيما حَرَفُوهُ ، (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أنهم مبطلون كاذبون . أو معناه : وهم يذكرون من غير نسيان ، فهم - فى جريمتهم هذه - عامدون مصرون . وإذا كان أمرهم كذلك ، فلا تطمعوا فى إيمانهم ، فلا يؤمن من ضاعت أمانته ، وخبثت سريرته ، واجترأ على كلام الله بالتحريف مع العمد والإصرار . فجملة (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) : حال مؤكدة لاستهجان قبح ما اجترأوا عليه من التحريف . والتعبير باللام فى قوله (لَكُمْ) : لتضمين الكلام معنى الاستجابة فكأنه قيل : أفطمعون أن يؤمنوا مستجيبين لكم .

ثم عقب الله اتصافهم بالخيانة العلمية ، باتصافهم بالنفاق فى الإيمان فقال :

٧٦ - (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا) . الآية .

أى ومن صفاتهم التى تدعو إلى اليأس من إيمانهم : أنهم منافقون ، فقد كان بعضهم إذا لقوا الذين آمنوا ، نافقوهم ، وأظهروا أنهم مؤمنون برسول الله وما أنزل عليه ، وأخبروهم أنه - صلى الله عليه وسلم - مبشر به فى التوراة .

(وَإِذَا خَلَا بِغُسُهِمْ إِلَى بَعْضٍ .

أى وإذا فرغ وخلا بعض اليهود - وهم الذين لم يظهروا النفاق - إلى بعض آخر - وهم المنافقون منهم - بعدما سمعواهم يحدثون المؤمنين ببعض ما كتموه من التوراة (قَالُوا) - لَأُثْمِنَ لِإِخْوَانِهِمُ الْمُنَافِقِينَ مُنْكَرِينَ عَلَيْهِمْ :- (أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ) : أنخبرون المؤمنين بما فتح الله عليكم من أبواب العلم التى كتمناها عنهم كالإشارة بالنبي وعلاماته ، وأخذ الميثاق على أنبيائهم بالإيمان به ، وتبليغ أمهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه إن أدركوه ، - أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِذَلِكَ - (لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ) أى ليقنعوا عليكم به الحجة فى كتاب ربكم وشرعه ؟

وقيل المراد بقوله : (عِنْدَ رَبِّكُمْ) يوم القيامة ، أى ليحاجوكم به يوم القيامة توبيخاً لكم ، وزيادة فى فضيحتكم على رؤوس الأشهاد ؟ وهذا رأى غير مقبول ، فإنهم عالمون بأنهم محجوجون بما فى كتابهم يوم القيامة : حدثوا به أو أخفوه ، فلا وجه لتوبيخ إخوانهم على إظهاره للمؤمنين . إذا كان المراد بقوله (عِنْدَ رَبِّكُمْ) يوم القيامة .

روى عن ابن عباس أن ناساً منهم أسلموا . ثم نافقوا . فكانوا يحدثون المؤمنين بما عذب به آباؤهم ، فقالت لهم اليهود : أأتحدثونهم بما فتح الله عليكم ، أى بما حكم به عليكم من العذاب ، ليقولوا نحن أكرم على الله منكم ؟ نقله القرطبي ، وقدمه على ما سواه من الآراء .

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) خطر هذا الفعل علينا وعليكم ؟

والتعبير بالفتح فى قولهم : (بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) للإيدان بأنه سر مكتوم ، وباب مغلق فى وجه غيرهم ، فلا ينبغى أن يطلع عليه سواهم .

ثم وبخهم الله - تعالى - وجهلهم ، وأنكر عليهم هذا التلؤن والنفاق فى الدين فقال : ٧٧ - (أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) ؟

أى أيلومونهم على التحدث بما فتح الله عليهم ، مخافة أن تقوم عليهم الحجة ، ولا يعلمون أن الله - سبحانه وتعالى - محيط بما يسرونه من أقوالهم عن المؤمنين ، وما يعلنونه

من النفاق ، فلا تخفى عليه خافية من أمرهم ، وأنه مطلع رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالوحي على كيدهم فتحصل المحاجة ، كما حدث في آية الرجم ، وتحريم بعض المحرمات عليهم ، فأى فائدة في اللوم والعتاب ؟ فايتردعوا عن ذلك وينزجروا ، ويدخلوا في الإيمان بقلوبهم .

والاستفهام في (أَوْ لَا يَعْلَمُونَ) : إنكارى : مؤذن بشناعة نفاق المنافقين منهم ، وقبح اللوم من أصحابهم لهم ، على اطلاع المؤمنين على صفة الرسول وغيرها في التوراة ، مع علمهم أن الله يعلم سرهم ونجواهم .

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)^{٧٨}
 فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
 لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا
 يَكْسِبُونَ)^{٧٩}

المفردات :

(أُمِّيُونَ) : جمع أمى ، وهو الذى لا يقرأ ولا يكتب ، منسوب إلى الأم ، إيذانا بأنه - فى الخلور عن العلم والكتابة - كما ولدته أمه .

(أَمَانِي) : جمع : أمنية ، وهى فى الأصل ، ما يقدره الإنسان فى نفسه ، مأخوذة من مَنَى ، إذا قَدَّرَ . والمراد بها هنا الأكاذيب التى أخذوها عن شياطينهم المحرفين للتوراة ، كما قاله ابن عباس ومجاهد .

(فَوَيْلٌ لَهُمْ) : الويل فى الأصل ، مصدر لا فعل له من لفظه ، مثل ويح ، والمعنى هلاك لهم وشدة عذاب . وهى كلمة دعاء .

التفسير

بعد أن بين الله - سبحانه - جنایات اليهود في ماضيهم وحاضرهم ، وفي جملتها تحريفهم لكتاب الله التوراة ، من بعد ما عقلوه ، عَقَّبَ ذلك بذكر فريق جاهل منهم : تأثر بتحريف أحبارهم ، وضل بإضلالهم ، وهم الأميون فقال :

٧٨ - (وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي . . .) الآية .

أى ومن هؤلاء اليهود ، عوام جهلة : لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، فلا يقرءون التوراة ، لا يتحققون مما فيها . ومدى علمهم بها أمانى مدسوسة وأكاذيب باطلة ، تلقوها عن رؤسائهم وأحبارهم ، وعملوا بها تقليداً لهم .

ومن هذه الأمنيات والأكاذيب : أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، وأن الله - سبحانه - وتعالى - يعفو عنهم ويرحمهم ، وإن كفروا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا ، وأن النار لا تمسهم إلا أياما معدودات ، وأنهم صفوة الإنسانية ، وشعب الله المختار لعمارة الأرض ، وأنهم أبناء الله وأحباءه ، وأن السيطرة على الناس لهم ، وغير ذلك من الأمانى التى تمنوها ، فهؤلاء ضلوا ، تبعاً لأضاليل أحبارهم .

والاستثناء في قوله (إِلَّا أَمَانِي) : منقطع عن الكتاب وليس متصلاً به ، لأن أمانيتهم الكاذبة المذكورة ، لا توجد في كتابهم ، فهى من اختراع أحبارهم . فإلا بمعنى : لكن ، أى : لكن يعتقدون أمانى فارغة : لا أصل ولا حقيقة لها .

(وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) : أى وما هم إلا قوم يظنون ، والمراد من الظن هنا ، الكذب أو التوهم ، أى : وما هم إلا قوم يكذبون أو يتوهمون هذا ، فلا علم عندهم بما يقولون ، ولا دليل عليه ، فأنى يرجى منهم الإيمان بالرسول وهم على هذه الأوهام ، مغرورون بتلك الأمانى !

ثم أنذر الله - سبحانه - الأحبار المحرفين للحق بالهلاك ، فقال :

٧٩ - (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً . . .) الآية .

أى هلاك عظيم لهؤلاء الذين يحرفون كتاب الله ، وهو التوراة ، إذ يكتبونها بأيديهم ، ويدسون فيها أكاذيبهم ، وما يحفظ عليهم رياستهم وجاههم ، موهمين العوام أنها من عند الله ، ليحملوهم على اعتقادها ، والتعلق بالأمانى التى زيفوها فى التوراة : يبتغون بهذا الفعل ثمناً قليلاً ، هو : الاحتفاظ بالرياسة ، وأكل أموال الناس بالباطل . وهم بهذا يرتكبون أكبر جريمة ، وهى : افتراء الكذب على الله ، ويختارون الباطل وينبذون الحق ، فيكونون بذلك : كمن يبيع شيئاً نفيساً غالى القيمة . بثمن تافه !

وسبب ذلك : أنه لما ضعف أمر عامائهم فى أمتهم ، عمدوا إلى أمور تصرف الناس إليهم وألحقوها بالتوراة ، وقالوا لسفهائهم : هذا من عند الله ليقبلوه عنهم ، فتأكد رياستهم . وكان مما أحدثوا فيها أن قالوا : « لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » ^(١) : يعنون بالأُميين : العرب ، ويعنون بأنهم ليس عليهم فى الأُميين سبيل : أن ما أخذوا من أموالهم فهو حل لهم ، ومنه قولهم : لا يضرنا ذنب ، فنحن أبناء الله وأحباؤه ، وأن النار لن تمسنا إلا أياما معدودات . إلى غير ذلك مما كذبهم الله فيه فقال : (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ) : من تحريف كلام الله ، وتبديله ، وسوء تأويله (وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) بالباطل من جاه ورياسة ومال .

وتكرير الويل هنا ؛ لتأكيد الوعيد ، وتعليقه صراحة بالتزوير فى الحق ، وبكسبهم الحرام ، بعد الإشعار به فى صدر الآية (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) .

ولمّا قيد الكتابة بالأيدى ، مع أنها لا تكون إلا بها ، لتحقيق مباشرتهم ما حرفوه ، زيادة فى تقبيح أفعالهم ، ولتأكيد القصد إلى التحريف ، ليشتروا به ثمناً قليلاً . ولأن الأيدى جوارح تقع بها أكثر الجنايات .

وقدم الكتابة وآخر : يكسبون ؛ لأن الكتابة مقدمة ، والكسب مترتب عليها ، فالكتابة سبب ، والكسب مسبب عنها .

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ) : لن تصيبنا ، والمس : اتصال أحد الشيئين بآخر وإصابته له .
 (أَيَّامًا مَّعْدُودَةً) : بضبطها العد ، فهي إذن قليلة
 (بَلَىٰ) : حرف جواب كنعم ، إلا أنها لا تقع إلا جواباً لنفي متقدم ، سواء أدخله استفهام أم لا ، وتفيد إثبات ما بعدها .
 (وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ) : الخطيئة : السيئة التي استمكنت من النفس ، وحملتها على تجنب الصواب عمداً ، وإحاطتها به : شمولها له واستيلائها على جميع تصرفاته ، كما يحيط الثوب بلباسه .

التفسير

اليهود أهل غرور وزعم باطل ، فهم يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم شعب الله المختار ؛ ولذا عطف القرآن على ماسبق ؛ ضرباً آخر من ضروب غرورهم ، وافتراءهم الكذب على الله وهم يعلمون ، فقال :

٨٠ - (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً . . .) الآية .

إدعى هؤلاء اليهود أن النار لا تمسهم في الآخرة ولا تصيبهم إلا أياماً قليلة بضبطها العد . ومثل هذا الكلام الذي قالوه ؛ لا يجوز قوله أو اعتقاد مدلوله ، إلا بعهد من الله -

تعالى - مالك يوم الدين ، الذى يقضى فيه بدخول الجنة والنار ، ولا معقب لحكمه .
ولذا أمر الله نبيه أن يرد عليهم موبخاً ومبكتاً بقوله : (قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا) .
بأن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة ؟ !

والاستفهام فى (أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا) للإنكار والنفى ، أى : لستم على عهد
من الله بما تدعون .

أما قوله تعالى : (فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ) فهو جواب شرط مقدر ، أى إن صح
أن لكم عهداً عنده - تعالى - بما قلتم ، فلن يخلف الله عهده . وإظهار لفظ الجلالة فى
موضع الإضمار ، للإشعار بعلّة الحكم . فإن عدم الخلف فى العهد من أحكام الألوهية .

ثم أكد توبيخهم على ما افتروا على الله فقال : (أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)
أى بل أنقولون على الله ما لا دليل لكم عليه ، فأنتم تفترون على الله الكذب « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ » (١) .

وإنما وبّخهم على قولهم على الله ما لا يعلمون وقوعه - مع أن ما أسندوه إليه يعلمون أنه لم يقع -
للمبالغة فى التوبيخ والنكير . فإن التوبيخ على الأدنى مستلزم للتوبيخ على الأعلى بالطريق
الأولى .

ثم أبطل الله دعواهم على وجه أعم وأشمل ، لهم ولسائر الكفرة بقوله :

٨١- (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ) .

أى بلى : تصيبكم النار فيصهر بها ما فى بطونكم والجلود ، أنتم وغيركم من سار سيرتكم ،
وأحاطت به خطيئته مثلكم ، وتلازمكم وإياهم النار خالدين فيها ، لأن القانون الإلهى
العادل ، الذى شرعه رب العالمين : أن من كفر بالله ، وعمل السيئات ، واستولت عليه
الخطايا حتى صار لا يخلو منها ، فأولئك أصحاب النار ، أى الملازمون لها فى الآخرة .
هم فيها خالدون لا يبرحونها .

وقد دل قوله تعالى : (بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) على أنه لم يبق جانب من قلبه ولسانه وجوارحه إلا اشتملت عليه سيئته وخطيئته ، واستولت عليه . وهذا لا يتحقق إلا في الكافر .

ولذلك فسر علماء السلف: السيئة والخطيئة في الآية بالكفر . وقد روى ذلك عن ابن عباس وأبي هريرة ، ومجاهد وعطاء وغيرهم .

ويشهد لهذا: أن الجزاء عليهما هو الخلود في النار ، كما نص عليه قوله تعالى: (أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) . كما آذن به تعقيب هذه الآية بثواب المؤمنين في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) . وبهذا التأويل لا يحتاج بالآية على خلود أصحاب الكبيرة في النار .

وفي الآية تحذير شديد من ارتكاب السيئات ، فانها تؤدي إلى التماذى فيها ، فلا يبالي صاحبها بالكفر ، فعلى من يرتكب سيئة أن يبادر بالتوبة منها ، فإن من لم يبادر بها ، أحاطت الخطيئة بقلبه ، فأصبح مظلماً لا ينفذ إليه النور ، فيكفر ، والعياذ بالله تعالى . قال صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا أذنب ذنباً نُكِتَتْ في قلبه نُكْتَةٌ سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صَفَلَ قلبه ، وإن عاد زادت حتى تَعْلَوْ قلبه ، فذلك الران الذي ذكره الله - تعالى - في القرآن : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (١) . وفي هذه الحالة تحيط به الخطايا ، كأنه مجبوس فيها لا يجد لنفسه منها مخرجاً .

وجرياً على سنة القرآن في ذكر الوعيد مقروناً بالوعد ، ترهيباً وترغيباً ، أردف ذلك الوعيد ببيان جزاء المؤمنين الصادقين في الإيمان ، ليظهر الفرق بين الأشقياء والسعداء ، فقال سبحانه :

٨٢- (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) . أى والذين جمعوا بين الإيمان الصحيح ، وما يترتب عليه من أعمال صالحة ؛ وأولئك هم أصحاب الجنة الجديرون بدخولها ، بحسب وعد الله وفضله . هم فيها خالدون : منعمون بكل ما يشتهون .

(١) السين للسكتة في التلاوة وسط الكلام .

(٢) سورة المطففين : الآية ١٤ ؛ والحديث رواه أحمد والترمذي والحاكم والنسائي وغيرهم .

وترتيب الإجابة بالجنة على الإيمان والعمل الصالح : يؤذن بأن العمل الصالح ، لا بد منه للحصول على هذا الثواب ، فهو الدليل على صدق الإيمان وقوته ، وحياته ، فكما أن أغصان الشجرة وثمارها ، دليل على حياة الشجرة وقوتها ، فكذلك العمل الصالح ، دليل على حياة الإيمان وقوته .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾)

المفردات :

- (مِيثَاقٌ) : الميثاق : العهد المؤكد .
 (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) : أى وتحسنون بالوالدين إحسانا مطلقا بلا حدود .
 (وَالْمَسْكِينِ) : الذين أذلّتهم الحاجة وأسكنتهم .
 (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) : أى قولوا لهم قولاً حسناً ، وهو ما تطيب به النفوس .
 ومنه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فى غير عنف ولا خشونة .

التفسير

شروع فى ذكر بعض القبائح التى ورثها اليهود المعاصرون للرسول عن أسلافهم ، مما يجعل الإيمان مستبعداً منهم ، ويحمل المؤمنين على ألا يطمعوا فيه . وذلك أنهم تولّوا مدبرين عما أخذ عليهم العهد به من الفضائل . ومن كانوا كذلك ، فلا ينبغي أن يطمع المؤمنون فى إيمانهم .

٨٣- (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ . . .) الآية .

أى واذكروا أيها المؤمنون ، وقت أن أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ، وعاهدناهم عهداً مؤكداً فى التوراة : (لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) أى وقلنا لهم فى العهد : لا تعبدون إلا الله ،

والمقصود منه : سبهم عن عبادتهم لغيره تعالى ، فهو نفى بمعنى النهى ، أى لا تعبوا غيره تعالى ، وهذا نظير قولك لشخص : تذهب إلى فلان وتقول له كذا ، فهو بمعنى : اذهب إليه وقل له كذا ، وهو أبغ من صريح النهى ، لما فيه من الإيذان بأنه ينبغى أن يسارع المنهى إلى الامتثال ، حتى يخبر عنه بأنه امتثل فعلا ، وانتهى عما نهى عنه .

والميثاق - بالتوحيد وغيره من العقائد وأهمات الشرائع والأخلاق - مأخوذ على جميع الأمم ، كما أخذ على بنى إسرائيل ، فلا خلاف بينها إلا في فروع الشرائع ، فلإنها تختلف تبعاً للزمان والأجيال ، رعاية لمصلحة البشر ، بحسب التطور الإنسانى .

والمراد من أخذ الله الميثاق عليهم بالأمر الآتية : توصيتهم بالعمل بها توصية مؤكدة في التوراة التى أنزلها على موسى - عليه السلام -

(وَيَا آلَ الدِّينِ إِحْسَانًا) : وأخذ الله عليهم العهد أيضاً : بأن يحسنوا إلى الوالدين

وهذا الإحسان المأمور به عامٌ : يدخل فيه جميع ما يجب لهما من أنواع الرعاية والعناية ، وقد قرن الله - سبحانه وتعالى - الأمر بالإحسان إلى الوالدين بالأمر بعبادته ، لما للوالدين من الفضل الكبير على الولد ، لأنهما بذلاً الكثير من العناية الصادقة في تربيته والقيام بشئون ، أيام أن كان ضعيفاً عاجزاً ، وكفلاًه حتى قدر على الاستقلال ، والقيام بشئون نفسه ، مع الحنان العظيم ، لا يبغيان من وراء ذلك أية مصلحة تعود عليهما ، فهما أحق بالعناية والرعاية ، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان .

وتنكير الإحسان في قوله : (إِحْسَانًا) ؛ للإيذان بتعميمه ، وإبلاغه إلى أقصى مداه .

(وَذِي الْقُرْبَى) : أى وأوصيناهم بالإحسان كذلك إلى ذوى القربى ، وهم : من تكون بينهم وبين الإنسان صلة قرابة من جهة الأب أو الأم ، والإحسان إليهم هو : القيام بما يحتاجون إليه بقدر الطاقة ، وذلك تقوية للروابط بين الأقارب ، ولأن من لاخير فيه لذوى قرابته فلا خير يرجى منه لغيرهم .

(وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ) : أى وأخذ عليهم الميثاق أيضاً : بالإحسان إلى اليتامى

والمساكين .

واليتامى هم : الذين مات آباؤهم وهم دون البلوغ ، فهم لهذا فى أمس الحاجة إلى الإحسان ، ويكون : بالكلمة الطيبة ، والتوجيه الرشيد ، والرعاية الحانية ، والمعونة بالمال ؛ إن احتاجوا إليها .

وفى القرآن والسنة كثير من الوصايا باليتامى ؛ ليجدوا من المسلمين الكرماء العاملين بدينهم ، ما يعوضهم عن فقد آبائهم ، ولأن الإحسان إليهم والرحمة بهم ، حماية للمجتمع ؛ حتى لا يكونوا عنصر شر وإفساد فيه .

ومن أهل الحاجة الذين أوصاهم الله بالإحسان إليهم أيضاً : المساكين الذين لا يقدرّون على الكسب ، أو لا يكفيهم ما يكسبونه ، ففى العناية بهم تعاون وتكافل ، وإقامة للمجتمع على أسس من التوادّ والتراحم .

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) : ومن جملة الميثاق الذى أخذ عليهم : أن يقولوا للناس قولاً حسناً ، كالنصيحة لهم ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، مع التزام الحكمة والموعظة الحسنة ولين الجانب ، والمخاطبة بما تطيب به نفوسهم ؛ وعدم الإساءة إليهم بالقول والخشونة ؛ فإن الفظاظة والغلظة لا تليق بأهل الشرائع السماوية .

وقد اشتمل الميثاق على وجوب أفراد الله - تعالى - بالعبادة والتوحيد ، وهو الأهم . ولذلك قدم الأمر به على سواه ، ثم عطف عليه الأمر بالإحسان إلى العباد فى معاملتهم . ولما كانوا متفاوتين . فى ذلك ، بدأ بأحقهم وهما الوالدان ، ثم أتبعهما ذوى القربى ؛ رعاية لحق القرابة ، ثم يتامى لضعفهم ، ثم المساكين سداً لحاجتهم ، ثم سائر الناس ، بما هو مقدور لكل أحد ، وهو الإحسان بالقول ، بأن يلقوهم بالطيب من القول ويجتنبوا إيذاءهم . فهذا النوع من الإحسان سهل هين على النفوس : يقدر عليه كل إنسان ، ويستطيع أدائه فى كل حال ، فلا عذر لتاركه .

ومن هذا نرى : أن هذا العهد قد اشتمل - بالإجمال - على أهم المقاصد للشرائع السماوية . فهى تكون أولاً : داعية إلى تطهير العقول والقلوب من رجس الوثنية ، وإخلاص العبادة لله وحده .

وتكون ثانياً : لإصلاح المجتمع ، وأول إصلاحه : رعاية الأقارب والضعفاء واليهود لا يفعلون ذلك .

ومأخذ الله به الميثاق على اليهود ، وفرضه عليهم في كتابهم ، ما حكاه بقوله :
(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) وإقامة الصلاة : أدائها تامة مستوفية الأشرائط
والأركان . وإيتاء الزكاة : إعطاؤها لمستحقيها .

والصلاة التي أمر بنو إسرائيل بإقامتها ، والزكاة التي أمروا بإتيانها هما : الصلاة
والزكاة المشروعتان في ديانتهم .

وقد ذكر ذلك كله ، ليعقب عليه : أنهم أعرضوا عما أخذ عليهم الميثاق بأدائه ، كما
سيجيء ، حتى يعلم المؤمنون أن نقض اليهود لمواثيق الله مرض قديم فيهم ، فلا ينبغي
للمؤمنين أن يطمعوا في إيمانهم .

ومع أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ داخلان في عبادة الله التي أخذ بها الميثاق على بني
إسرائيل ، فإنه تعالى - أفردهما بالذكر - بعد الإحسان إلى الوالدين والأقربين وأصحاب
الحاجات - لعظم شأن هاتين العبادتين ، ولما للصلاة من الأثر الكبير في تربية النفس ،
والنهي عن الفحشاء والمنكر ، والخشوع لعظمة الله ، ولما في الزكاة من تخفيف ويلات
الفقر والبؤس عن المحتاجين ، وحسن الصلة بالمجتمع عن طريق الإحسان إليه .

هذا هو الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل في التوراة ، فماذا كان من شأنهم ؟
هل التزموا العمل بهذا الميثاق ؟ إنهم لم يلتزموه ، وكانت حالهم كما قال تعالى :

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ) : فقد أفصحت الآية عما كان من
أكثرهم - بعد أخذ الميثاق عليهم ، بما فيه خيرهم وسعادتهم - وهو أنهم تولوا عن العمل
به ، وهم معرضون غير مكترئين بما يترتب على إعراضهم .

أما القليلون منهم فإنهم التزموا العمل بالميثاق ، وحافظوا على تنفيذه ، وهم المخلصون
في إيمانهم من أسلافهم - قبل أن تنسخ شريعتهم بالإسلام - ومن آمن منهم بمحمد -
صلى الله عليه وسلم - وحافظ على هذا الميثاق الموجود في سائر الأديان ، كعبد الله بن سلام ،
وزيد بن سعة . وقوله : (وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ) لتأكيد توليهم ، أي ثم توليتهم وأعرضتم
عن تنفيذ هذا الميثاق ، وأنتم قوم عادتكم التولي والإعراض عن المواثيق ، وهي عادة
ورثتموها عن آبائكم ، ويؤخذ كونه عادة لهم من الجملة الإسمية الدالة على الثبوت .
(وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ) .

وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب للحاضرين من اليهود في قوله : (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) ،
لأنهم خلف لهؤلاء السابقين ، في السير على نهجهم في نقض اليهود وعدم احترام المواثيق ،
فكأنهم هم ، فلذا خاطبوا بتوليهم وإعراضهم .

(وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٩﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هُنَا تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٩١﴾)

المفردات :

- (لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ) : تريقونها ، بأن يقتل بعضهم بعضاً .
(تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ) : أصله تتظاهرون ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، أى تتعاونون عليهم .
(بِالْإِثْمِ) : هو الفعل الذى يستحق عليه صاحبه الذم واللام .
(وَالْعُدْوَانِ) : هو التجاوز فى الظلم .
(أُسْرَى) : جمع أسير ، بمعنى مأسور ، وهو من يؤخذ على سبيل القهر والغلبة .
(تُقَادُّوهُمْ) : تنقلوهم بدفع الفداء ، وهو ما يدفع فى فك الأسير .

(خِزْيُ) : هوان .

(يُرْدُونَ) : يرجعون .

(اشْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ) : آثروا متاعها على نعيم الآخرة .

التفسير

ذكر الله بنى إسرائيل فى الآية السابقة ، بأهم الأوامر التى أخذوا العهد عليهم بالإتيان بها ، وأنهم لم يأتروا بها ، ونقضوا الميثاق الذى واثقهم به .

وهنا ، ذكرهم بأهم المنهيات ، التى أخذ الميثاق عليهم فى التوراة : بأن ينتهوا عنها ، فلم ينتهوا . على سياق الالتفات إلى الخطاب الذى ختمت به الآية السابقة . فإن الميثاق بذلك - وإن كان على أسلافهم - غير أن المعاصرين منهم للدعوة الإسلامية ، يزعمون تمسكهم بالتوراة ، وأنهم عاملون بها . فلذا خوطبوا بأنهم خالفوا ما أخذ عليهم فيها من المواثيق كما صنع أسلافهم . وذلك لإلزامهم بما يزعمون تمسكهم به .

وقدم توبييخهم على ترك امتثال الأوامر ، على التوبييخ على عدم اجتناب المنهيات ، لأن الأوامر هى الأصل فى التكاليف الشرعية . وكل نهى عن فعل ، أمر بضده . فالنهى عن الزنى ، أمر بالعفة ، وهكذا ، فالأمر هو الأساس . والنهى تابع له .

٨٤ - (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) .

أخذ الله عليهم الميثاق بألا يسفك بعضهم دم بعض . وعبر عنه بقوله :

(لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ) : إشعاراً بأن دم كل فرد من أفراد الأمة ، كأنه دم الآخر . فإذا سفكه فكأنه سفك دم نفسه .

وكذلك واثقهم ألا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم ، كما بينه بقوله : (وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ) : ويدخل فى معنى الإخراج من الديار المنهى عنه : أن يتصدى الرجل لإيذاء جاره ، حتى يلجئه إلى الخروج من داره .

ومن الإخراج: أن يكونوا سببا فيه ، كما حدث من اليهود في خيانتهم ليهودهم مع المسلمين ، إذ كانت خيانتهم لهم ، سببا في إخراجهم من ديارهم حول المدينة عقابا لهم .
 (ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ) : ثم أنتم - أيها المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم - قد أقررتم بهذا الميثاق ، واعترفتم بلزوم العمل بمقتضاه ، وأنتم تشهدون على أنفسكم باعترافكم به ، ولزوم العمل بمقتضاه ، وذلك مثل قولك : أقر فلان بكذا شاهداً على نفسه .

أو المعنى : وأنتم تشهدون اليوم على أسلافكم : أنهم أقرؤا بهذا الميثاق .
 وسواء أكان المعنى هذا ، أم ذاك ، فإنه يقتضى أن يعمل اليهود المعاصرون للرسول ، بالميثاق الذى أخذه الله على اليهود فى كتابهم ، حيث إنهم معترفون به ، زاعمون أنهم متمسكون بالتوراة .

وهذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون وما يعترفون به ، لا من باب أن التوراة لا يزالون مكلفين باتباعها ، فقد نسخت بالقرآن .

وقد تضمن هذا الميثاق أربعة أمور تعتبر أساسا لمجتمع فاضل ، يسوده السلام والطمأنينة ، والعدالة والمودة والرحمة : ألا يسفك بعضهم دم بعض ، وألا يخرجهم من داره ، وألا يتظاهر عليه بالإثم والعدوان ، وأن يفتديه إذا أسر . ولكنهم لم يعملوا بهذا الميثاق ، كما تحدثت به الآية الكريمة ، إذ تقول :

٨٥ - (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ) الآية .
 وقوله : (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ) : خطاب خاص باليهود المعاصرين للرسول ، فيه توبيخ شديد لهم واستنكار واستبعاد قوى لما ارتكبهوه بعد إقرارهم الميثاق ، وشهادتهم عليه . و (أنتم) : مبتدأ ، و (هَؤُلَاءِ) : خبره . ومناط الإفادة اختلاف الصفات ، وإن [اتحدت الذات ، إذ المعنى : ثم أنتم - بعد ذلك الميثاق والإقرار والشهادة - هَؤُلَاءِ] المشاهدون الناقضون المتناقضون ، كما تعرب عنه الجمل الآتية :

(تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ) إلخ ، فإنها بيان للخبر ، وتفصيل لأحوالهم المدرجة تحت إسم الإشارة ضمنا ، كأنهم قالوا : كيف نحن ؟ فقيل : تقتلون أنفسكم ، وذلك يشبه قولك : أنت ذلك الرجل الذى فعل كذا وكذا .

وقال الفراء : هو لاء ، هنا : اسم موصول بمعنى ، الذين وما بعده صلة .

(تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) : أى تتعاونون عليهم قتلا وإخراجا آثمين

فى حقهم ، معتدين ظالمين فيما تصنعونه بهم .

(وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَسَارَى تُقَادُوهُمْ) : أى وأنتم مع قتل بعضكم بعضا ، وإخراج

بعضكم بعضا من ديارهم ، إذا وجدتم الذين أخرجتموهم من ديارهم ، أسرى فى أيدي غيركم من الأعداء ؛ تسعون لفكهم ، وتبذلون عوضا لإطلاقهم ، وهذا من التناقض العجيب ، حيث استحلتهم إخراجهم وتعريضهم للأسر .

(وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ) : فكيف تخرجونهم من ديارهم ، وتستحلون

ذلك ، وهو حرام عليكم فى التوراة ، وإذا صاروا فى الأسر بإخراجكم لهم فاديتموهم ؟

أليس هذا نقضا للميثاق فى جانب ، وعملا فى جانب آخر ؟ فلماذا لم تتبعوا حكمها

فى النهى عن إخراجهم ، وقد اتبعتموه فى افتدائهم ؟

فقد جاء فيها أنه - تعالى - أخذ عليهم الميثاق : ألا يقتل بعضهم بعضا ،

أو يخرجهم من داره ، وأما عبد أو أمة وجدتموه من بنى إسرائيل ، فاشتروه واعتقوه .

وكان اليهود من بنى قريظة وبنى النضير يقيمون بالمدينة ، ويحالف الأولون الأوس ،

والآخرون الخزرج ، فكانت الحرب إذا قامت فى الجاهلية بين الأوس والخزرج ،

انضم إلى كل فريق منهما حليفه من اليهود ، وقتل بعض اليهود بعضا ، أو أخرجوهم

من ديارهم ، وبعد الحرب : يفدى كل فريق منهم ، أسرى الفريق الآخر عند حلفائهم ،

فغيرتهم العرب ، وقالت : كيف تقاتلونهم ، ثم تفدونهم ؟ فيقولون : أمرنا أن نفديهم ،

وحرم علينا قتالهم ، ولكن نستحي أن نذل حلفاءنا ؛ فذمهم الله على تناقضهم فقال :

(أَفْتَوْنُونُ بَعْضُ الْكِتَابِ) ، فتفدون أسراكم ، (وَتَكْفُرُونَ بَعْضُ) فتقتلون

أنفسكم ، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم ؟ إذ لو كانوا يؤمنون به كله لما تناقضوا فى

العمل به .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، على التفريق بين أحكام الله التى أخذ عليهم العهد بالعمل

بها فى التوراة .

ومناطق التوبيخ والإنكار ، هو كفرهم ببعضها مع إيمانهم ببعضها الآخر ، وسمى عصيانهم بالقتل والإخراج من الديار كفرا ، إبرازا لشناعة ما ارتكبهوه ، بتنزيله منزلة الكفر بأحكام التوراة .

لذا توعدهم الله ، تعالى - على عصيانهم بنقضهم الميثاق المنزل منزلة الكفر - بالخزى العاجل في الحياة الدنيا ، والعذاب في الآخرة . فقال تعالى :

(فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : فالإشارة في قوله (ذَلِكَ) : راجعة إلى القتل والإخراج من الديار : اللَّذَيْنِ نقضوا بهما عهد الله بغيا وكفرا .

والمراد بالخزى في الحياة الدنيا : الذل والهوان مع الفضيحة بين الناس ، إذ كانت العرب تعيرهم بقتلهم لنبيهم ، مع أنهم يفادون أسراهم ، ثم ما تلا ذلك من قتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير إلى أذرعات وأريحاء من الشام ، وفي ذلك أعظم الخزى .

وتنكير الخزى لتهويله . ووعيدهم بالعقاب على مخالفتهم التوراة مع أنها نسخت بالقرآن : إما لأن ما فعلوه بقومهم ، كان قبل البعثة . وهم كانوا حينئذ ، مكلفين بالتوراة ، أو لأن القرآن لا يقر الظلم ، كما لم تقره التوراة .

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ) : أى أن هذا الخزى الذى نزل بهم في الدنيا ، لا يكفر عنهم سيئاتهم ، وإنما يصيرون إلى أشد أنواع العذاب يوم القيامة .

والمراد من قوله : (يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ) : أنهم يعاقبون به وينتهون إليه .

وهذا التفسير لا يقال : إن الرد إلى أشد العذاب يقتضى أنهم كانوا فيه قبل ذلك .

والتعبير بقوله (يُرَدُّونَ) بضمير الغيبة ، للإيدان بعموم هذه العقوبة لمن يكون على هذا الكفر ، وأنها لا تختص بالمخاطبين من قبل ، كما أن تحويل الكلام من أسلوب الخطاب السابق إلى الغيبة هنا ، يؤذن بالإعراض عن خطابهم ، لعظيم جرمهم .

(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) : وليس الله بساهٍ عن أعمالهم القبيحة ، التى من جملتها هذا المنكر ، بل هو عالم ومحيط بها ، ومجازيهم عليها .

وقد عاد القرآن إلى أسلوب الخطاب في قوله لليهود : (وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .
بعد أسلوب الغيبة المؤذن بالإعراض عنهم في قوله : (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ) .
للمبالغة في التهديد والوعيد .

ثم أكد الله عليهم الوعيد الشديد ، مبينا السبب الذي من أجله استحقوه بقوله :

٨٦ - (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ . . .) الآية .

أى آثروا متاعها من نحو الرياسة والمال ، وكل ما ينتفعون به من حظوظ عاجلة :
آثروه على نعيم الآخرة . فأعرضوا عنها ، وتركوا شرع الله . مع علمهم أن متاع الدنيا
قليل . وأن الآخرة خير للمتقين .

والإشارة إلى المذكورين بأوصافهم ، فيها بيان أن تلك الأوصاف هى السبب فيما توعدهم
الله به .

وليس فيما صنعوا شراءً وبيع على الحقيقة ، ولكنهم لما جعلوا حظوظهم من نعيم الآخرة
المقيم ، بدلا لما تمتعوا به في الحياة الدنيا الفانية .

شبهت حالهم هذه بحال من يشتري شيئا هينا ، بثمن خطير عظيم ، من حيث عدم
تكافؤ قيمة البدل والمبدل منه في كل . فإنهم لما كفروا ببعض أحكام التوراة ، كان
ثمنهم على هذا الكفر مرضاة حلفائهم ، وبعض المنافع الدنيوية التافهة - على رأى -
أو بقاء رياستهم الدينية في قومهم - على رأى آخر - وكلاهما متاع الحياة الدنيا الذى
لا يساوى شيئا بجانب نعيم الآخرة المقيم .

(فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) : أى هؤلاء الذين تقدم ذكرهم - وقد
آثروا متاع الدنيا عوضاً عن نعيم الآخرة - لا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة ، ولا يقطع
عنهم ، ثم لا يجدون نصيرا يدفع عنهم - بقوته أو بشفاعته - ما وقعوا فيه من أشد العذاب ،
لأن أعمالهم قد سدت عليهم جميع أبواب الرحمة ، فهم في العذاب الشديد خالدون .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾)

المفردات :

- (الكتاب) : التوراة .
- (وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ) (أى : بعثناهم على أثره إليهم يقال : قفاه به أى : أتبعه إياه وأرسله على أثره .
- (الْبَيِّنَات) : الآيات الواضحة الدالة على نبوته .
- (وَأَيَّدْنَاهُ) : قويناه ، من آد الرجل إذا اشتد وقوى .
- (بِرُوحِ الْقُدُسِ) : القدس : الطهارة . وروح القدس : هو جبريل - عليه السلام - أى الروح المطهر .
- (غُلْفٌ) : جمع أغلف أى : مغشاة بأغلفة مانعة من وصول الهدى إليها
- (يَسْتَفْتِحُونَ) : يستنصرون من الاستفتاح ، وهو طلب الفتح والنصرة .
- (فَلَعْنَةُ اللَّهِ) : اللعنة : الإبعاد والطرده من مواقع رحمة الله .

التفسير

٨٧- (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ . . .) الآية .

هذا تذكير من الله لبنى إسرائيل ، بضرب من النعم التى أنعم بها عليهم ، فقابلوها بالكفر والعصيان . وهى أن الله - سبحانه وتعالى - أرسل موسى - عليه السلام - إليهم ، وآتاهم التوراة فيها هدى ونور لهدايتهم .

(وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ) : وأتبعناه بالرسول تترى - ومن هؤلاء الرسل : يوشع ودلود وسليمان ، وعزير وإلياس واليسع ، ويونس وزكريا ويحيى - عليهم السلام - فلم يكن لبني إسرائيل عذر يعتذرون به عن مخالفة هؤلاء الأنبياء . وكثرة الرسل فيهم ليست لأنهم شعب الله المختار . أو أنهم أبناء الله وأحباؤه كما يزعمون ، بل لغلظة قلوبهم ، وصعوبة انقيادهم . وليتوالى تفسير التوراة لهم بما تلاها من أسفار رسل بني إسرائيل ، ولطول الفترة بين موسى وعيسى - عليهما السلام - ، فقد كانت خمسا وعشرين وتسعمائة وألف سنة . على ما قيل .

(وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ) : وأرسل الله إليهم في أعقاب أولئك الرسل عيسى ابن مريم ، وأعطاه الآيات الواضحة الدالة على نبوته . كإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله . والإخبار ببعض الغيبات . وكذلك آيات الإنجيل ، وإضافة عيسى إلى أمه : للرد على اليهود الذين زعموا أن له والدا . وقالوا فيه وفي أمه ما قالوا ، فأساءوا إلى الحق المؤيد بالمعجزات .

(وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) : أى قواه الله تعالى - بجبريل الأمين الذى يؤيد الله به أنبياءه . وإطلاق روح القدس على جبريل فى الإسلام شائع . ومن ذلك قوله تعالى : « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ » (١) وقوله - صلى الله عليه وسلم - لحسان : « قل وروح القدس معك » (٢) . وقال له مرة أخرى : « وجبريل معك » (٣) . وكان حظه معهم كحظ من سبقه من الرسل . وإنما خص عيسى - عليه السلام - بالذكر من بين أنبياء بني إسرائيل ؛ لكونه صاحب كتاب نسخ بعض أحكام شريعة موسى - عليه السلام - .

(١) النحل : ١٠٢ .

(٢) قال عمر لحسان : أنشدك الله . أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول : « أجب عني . اللهم أيده بروح القدس » قال : (اللهم نعم) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٣) عن البراء - رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان ابن ثابت « أجهم أو هاجهم . وجبريل معك » رواه مسلم .

وقوله : (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ) : من أولئك الرسل (بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ) : من الحق المبين (اسْتَكْبَرْتُمْ) : على الاستجابة له (فَفَرِيقًا) : منهم (كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) : غير مكتفين بتكذيبهم .

والاستفهام للإنكار والتوبيخ على موالاة تكذيب الرسل وقتل بعضهم .
وفي الآية التفات من الغيبة في قوله تعالى : « فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » ، إلى الخطاب في قوله : (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ . . .)
والآية لتشديد النكير عليهم ، والإيذان بأن المعاصرين للرسول منهم على نهج أسلافهم ، من التكذيب والفجور .

فقد كذبوا محمداً - صلى الله عليه وسلم - وحاولوا قتله .
ولقد ذكرت الآية الكريمة أن السبب في ضلالهم هو : الاستكبار والاستعلاء . فهذا الاستكبار جعل هواهم هو المتحكم فيهم ، فلا يتبعون إلا ما يناسب هواهم ، حتى جعلوه إلههم ، فأداهم ذلك إلى أن يكذبوا النبيين أو يقتلوهم ، إن تمكنوا من قتلهم .
وعبر في جانب القتل بالفعل المضارع فقال (تَقْتُلُونَ) ولم يقل : قتلتم ، كما قال كذبتم ، استحضرنا بصورة قتل الأنبياء أمام السامع ، وجعله كأنه ينظر إليها بعينه . فيكون إنكاره لها أبلغ ، واستفظاعه لها أعظم .

وعقب الله هذه الجنايات بأخرى : حكاها عنهم بأسلوب الغيبة - إعراضاً عنهم - فقال سبحانه .

٨٨ - (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ . . .) الآية .

أصر اليهود على العناد والكفر ، وعدم الاستماع إلى ما يدعوهم إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - معللين عدم إيمانهم ، بأن قلوبهم مغشاة بأغشية لا ينفذ منها إلى قلوبهم ما جاء به - صلوات الله عليه - حتى تفقده عقولهم ، على حد قول مشركي مكة « قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ » (١) يعنون أن

قلوبهم ليس فيها استعداد لقبول ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد كذبوا ، فإنه دين الفطرة ، فلوتركوا فطرتهم - كما خلقت عليه - لقبيلته وآمنت به ، ولكنهم أساءوا الاختيار ، ففسدت فطرتهم .

ولهذا رد الله تعالى عليهم بقوله : (بَلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ) .

و(بل) هنا للإضراب الإبطالي ، ورد ما يقولون ، أى : ليس الأمر كما زعموا ، بل أبعدهم الله عن رحمته ، بأن خذلهم وتركهم وشأنهم ؛ بسبب إصرارهم على الكفر ، لسوء اختيارهم الذى أبطلوا به استعدادهم الفطرى لقبول الهدى ، فاستحقوا بذلك أن يحرمهم الله من لطفه ورحمته . « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ » (١) ثم ختم الآية بالنتيجة فقال : (فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ) الفاء فى (فقليلًا) أفادت ترتيب ما بعدها - وهو قلة إيمانهم - على ما قبلها ، وهو لعن الله لهم . وقليلًا صفة لمحذوف ، و (ما) : صلة لتأكيد القلة ، وليست نافية . أى : فإيماننا قليلًا يؤمنون . والمقصود من القلة العدم ، أى لا يؤمنون أصلاً ، لأن الإيمان الشرعى لا يتجزأ ، فإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر . لا يعتبر إيماناً بل كفراً ، واستعمال القلة بمعنى العدم معروف فى لغة العرب ، يقولون : هذا شئ قلما ينفع ، يريدون أنه لا ينفع أصلاً .

٨٩ - (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ . . .) الآية .

وهذا نوع آخر من ضلالات اليهود الذين كانوا فى عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو أنه لما جاءهم كتاب منزل من الله - وهو القرآن - مصدق للتوراة التى معهم ، فى التوحيد وأصول الدين ، وموافق لها فيما يختص ببعث النبي - صلى الله عليه وسلم -

(وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) : وكانوا - قبل مجيئه - يستنصرون على أعدائهم من المشركين ، بالنبي المبعوث فى آخر الزمان ، قائلين : اللهم أنصرنا عليهم

بالنبي الذي نجد نعته في التوراة . ويقولون لهم : قد أطل زمان نبي يخرج بتصديق ماقلنا . فنقتلكم به قتل عاد وإرم .

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) : تكرير للشرط الأول في قوله (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ) مع تغيير الأسلوب ، وذلك لطول العهد بسبب توسط الجملة الحالية : (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) - أى : فلما جاءهم الكتاب الذى عرفوا أنه من عند الله كفروا به . وإيراد الموصول (ما عَرَفُوا) دون الاكتفاء بالإضمار بأن يقال لهم : فلما جاءهم أى الكتاب إنما جاء لبيان كمال مكابرتهم . فإن معرفتهم لما جاءهم . من دواعي الإيمان لا الكفر . وقوله (كَفَرُوا) جواب (لَمَّا) الأولى عند المبرد . وقال أبو البقاء هو جواب الأولى والثانية معاً .

وقيل إن المراد بلفظ (ما عرفوا) هو النبي - صلى الله عليه وسلم - واستعمال « ما » فيمن يعلم كثير ، كقوله تعالى « وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا » (١) يعنى ومن بناها . وعلى هذا تكون جملة (كَفَرُوا بِهِ) جواباً عن (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا) أما جواب (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ) : فمقدرٌ وتقديره : كذبوه . وقد دل عليه جواب الثانية .

والمعنى عليه : فلما جاءهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى عرفوا صفاته ونبوته من التوراة : معرفة لا يخالجهما ريب ، حسدوه ، لأنه من العرب أولاد إسماعيل : وملاً الحسد قلوبهم غيظاً ، (فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ) : الفاء لترتيب ما بعدها - من اللعن - على ما قبلها من الكفر : أى : فلعنه الله عليهم وطرده لهم من رحمته وتوفيجه ، بسبب كفرهم بما عرفوا أنه الحق ، وإصرارهم عليه ، وإنما : قال (عَلَى الْكَافِرِينَ) ولم يقل عليهم ليشعر بأن سبب حلول اللعنة بهم هو كفرهم (وَعَلَى) تفيد استعلاء اللعنة عليهم وشمولها لهم .